دخول طرابلس الغرب تحت الحكم العثماني (١٥٥٥م)

د. رابحه محمد خضير
كلية الآداب - جامعة الموصل

المؤتمر العلمي السنوي الأول لكلية التربية الأساسية (٢٣-٢٤/أيار/٢٠٠٧)

ملخص البحث :

كان الأسبان قد استولوا على طرابلس الغرب منذ عام ٩٦١ هـ - /١٥١٠م بعد أن قتلوا أعداداً كبيرة من سكانها ، ومنذ ذلك الوقت حكم الأسبان طرابلس الغرب حكماً مباشراً استمر قرابة عشرين عاماً ، تعرضت خلال هذه المدة إلى العديد من الهجمات التي كان ينفذها المجاهدون من سكان غريان وتاجوراء اللتين أصبحتا القاعدتين الرئيسيتين لمقاومة الأسبان ، فضلاً عما كانت تتلقاه من مواجهات من الأخوين عُروج وخير الدين اللذان شكلا تهديداً خطيراً لنفوذ الأسبان في المغرب.

لكن الملاحظ عن عُروج وخير الدين أنهما ركزا جهودهما ونشاطهما البحري على تخليص مدن الجزائر وتونس من النفوذ الأسباني ومن تحالف معهم من سلاطين الحفصيين والزيانيين ، ولهذا تأخر الأخوان عن تلبية دعوة سكان طرابلس الغرب لها لانجادهم من المحتلين عام ١٥١٧م ، كما أن الوضع في الحوض الغربي للبحر المتوسط تطلب جهداً كبيراً من خير الدين بربروسا من أجل تأمين المراكز من الهجمات الأسبانية.

تراجع النشاط التجاري في ميناء طرابلس الغرب في ظل الاحتلال الأسباني ، واصبح على الأسبان توفير كل مستلزمات التموين للحامية المقيمة فيها ، ويعود ذلك التراجع إلى الضرائب الباهظة التي فرضتها الحامية الأسبانية على السفن التجارية التي تقصد طرابلس الغرب ، ونتيجة السياسة التي اتبعتها أسبانيا في طرابلس الغرب ، أعلن سكانها تأييدهم للعثمانيين ، ودعم جهودهم في العمل ضد الأسبان.

وما أن تولى السلطان سليمان القانوني عرش الدولة العثمانية عام ١٥٢٠م حتى شمل طرابلس الغرب باهتماماته الأولية عن طريق تقديم العون والمساعدة لسكان تاجوراء إيفاءً لطلب الوفد الذي كان قد التقى مع والده السلطان سليم الأول ، فقد قام السلطان سليمان القانوني بإرسال قوة عثمانية بقيادة مراد آغا إلى تاجوراء لتولي أمرها ، ولمواجهة الأسبان الموجودين في طرابلس الغرب.

وبسبب الغارات المتكررة على الحامية الأسبانية ، وسوء أوضاعها المعاشية ولانشغال الإمبراطور شارل الخامس بحروبه مع فرانسوا الأول ملك فرنسا ، قرر الإمبراطور شارل الخامس

تسليم طرابلس الغرب لفرسان القديس يوحنا ، ليضمن بذلك حماية ممتلكاته في جنوب إيطاليا ، وللمحافظة على الملاحة في الجزء الأوسط من البحر المتوسط ، فضلاً عن التخلص من الأعباء المالية الضخمة التي تصرف على الحامية الموجودة هناك ، مع ضمان بقاء تلك البلاد تحت سيطرته ، فبدأ الصراع بين تلك القوات والدولة العثمانية حتى عام ١٥٥٥م ، حينما دخلت طرابلس الغرب تحت الحكم العثماني.

Entrance of West Tripoli under the Ottoman Rule (1555 AD.)

Dr. Rabha Mohammed Kodaer
College of Art – University of Moul

Abstract:

The Spaniards took over the west Tripoli since 961 A.H/1510 A.D. after they killed a great number of its population. Since then the Spaniards ruled the West Tripoli directly, which continued for almost 20 year. It was under attack from the Mujahdeen who came from Tajoraa and Garean which became the main bases for resisting the Spaniards Besides, it faced a parallel attack from the two brothers Aarooj and Khair adden who formed a real threat for the Spanish influence in the Arab Magrib.

When the sultan Suleiman Alkanonycam to the throne in 1520 , he paid great attention to the West Tripoli through giving his help. He sent ottoman legion headed by Murad Agha to Tajoraa in order to rule it and to face the Spaniards there.

Because the frequent raids on the Spanish garrison, the worseness of the living condition and due to the engagement of Charles V in his wars with Francois I, the emperor Charles V decided to give the West Tripoli to the knights of St. Johen. Hence the struggle started between St. John’s Knights and the force of the ottoman in the West Tripoli which continued until 1550 when the West Tripoli the ottoman rule.

مقدمـة

لم تقف مطامع الأسبان عند حد التوسع في الجزائر وتونس وما حوليهما من المدن الساحلية فقط ، بل أرادوا الامتداد إلى أبعد من ذلك ، ليتمكنوا من السيطرة على الساحل الشرقي للمغرب العربي كما سيطروا على الساحل الشمالي.

عجزت القوات الأسبانية أمام مقاومة سكان تونس من السيطرة على القسم الشرقي، فرأى قائد القوات الأسبانية بيدرو نافارو – قائد إيطالي ذو سمعة حربية متميزة – أن يغير خطته ويبدأ بالتقدم باتجاه الساحل الشمالي عن طريق السيطرة على طرابلس الغرب – ليبيا حالياً – ليتمكن بعدها من تضييق الخناق على القسم الشرقي.

وهكذا سار بيدرو نافارو إلى طرابلس الغرب وهي يومئذٍ آخر حدود الدولة الحفصية جنوباً ، فأرسى أسطوله على ساحلها ، وجرت معركة حامية بين سكان طرابلس الغرب والقوات الأسبانية انتهت باحتلال القوات الأسبانية لطرابلس الغرب في ٢٥ تموز ١٥١٠م ، فبدأت على أثرها مرحلة جديدة من مراحل الصراع الأسباني – العثماني على هذا الجزء من المغرب العربي والذي انتهى بانضمامه إلى النفوذ العثماني عام ١٥٥٥م.

طرابلس الغرب تحت الحكم العثماني ١٥٥٥م

كان الأسبان قد استولوا على طرابلس الغرب منذ عام ٩١٦هـ/١٥١٠م[١] ، بعد أن قتلوا وأسروا أعداداً كبيرة من سكانها ، بينما أضطر الباقون إلى اللجوء إلى مدن غريان ومصراته وتاجوراء[٢] ، ومنذ ذلك الوقت حكم الأسبان طرابلس الغرب حكماً مباشراً استمر قرابة عشرين عاماً[٣] ، تعرضت خلال هذه المدة إلى العديد من الهجمات التي كان ينفذها المجاهدون من سكان غريان وتاجوراء اللتين أصبحتا القاعدتين الرئيستين لمقاومة الأسبان[٤]، فضلاً عما كانت تتلقاه من مواجهات من الأخوين عُروج[٥] وخير الدين[٦] اللذان شكلا تهديداً خطيراً لنفوذ الأسبان في المغرب العربي[٧].

لكن الملاحظ على عُروج وخير الدين باشا بربروسا انهما ركزا جهودهما ونشاطهما البحري على تخليص مدن الجزائر وتونس من النفوذ الأسباني ومن تحالف معهم من سلاطين الحفصيين والزيانيين[٨] ، ولهذا تأخر الأخوان عن تلبية دعوة سكان طرابلس الغرب لهما، لإنجادهم من المحتلين عام ١٥١٧م[٩] ، وحتى بعد استشهاد عُروج نجد أن الوضع في كل من الجزائر وتونس والحوض الغربي للبحر المتوسط تطلب جهداً كبيراً من خير الدين بربروسا من اجل تامين المراكز من الهجمات الأسبانية.

تراجع النشاط التجاري في ميناء طرابلس الغرب في ظل الاحتلال الأسباني ، وأصبح على الأسبان توفير كل مستلزمات التموين للحامية المقيمة فيها ، ويعود ذلك التراجع إلى

الضرائب الباهضة التي فرضتها الحامية الأسبانية على السفن التجارية التي تقصد طرابلس الغرب ، لا سيما السفن التابعة للبندقية ، وقد قدم سفير البندقية لدى بلاط شارل الخامس (ملك أسبانيا) شكوى بهذا الصدد إلى الأخير ولكن دون جدوى ، ولذا اضطرت البندقية إلى تغيير وجهة سفنها نحو ميناء مصراته على الساحل الليبي أيضاً[١٠].

اضطرت أسبانيا إلى تغيير سياستها المتبعة في طرابلس الغرب ، لا سيما بعد انشغالها بالصراعات المستمرة مع فرنسا حول الأراضي الإيطالية[١١] ، وذلك بالاعتماد على البعض من حلفائها العرب[١٢] ، حينما قام الملك شارل الخامس بفك أسر شيخ طرابلس ، الشيخ عبد الله المرابط الذي كان أسيراً في صقلية مدة عشر سنوات ، كما عمل شارل الخامس على إعادة الشيخ عبد الله المرابط إلى طرابلس ، ليضمن بذلك عودة سكانها الذين هجروها بعد أسر شيخهم ، وكان الملك شارل الخامس يرى بأنهم سيعملون على إعادة الحياة التجارية للمدينة وبالتالي سوف يضمن بذلك تحسن وضع الحامية الأسبانية الموجودة هناك والتي ظلت تعاني من سوء أوضاعها العامة[١٣].

رفض نائب ملك صقلية ، الذي كان يحكم طرابلس الغرب ، عودة الشيخ والسكان إلى طرابلس الغرب لأنه كان يريد ملئ البلاد بالنصارى[١٤] ، لكن الإمبراطور شارل الخامس بعث له رسالة في عام ١٥٢٠م يوضح له أنّ عودة الشيخ ستعمل على توطيد العلاقات بين المحتلين والأهالي[١٥]. لا سيما بعد تمكن الأسبان من القضاء على عُروج ، وظنهم أن لا قدرة لأخيه خير الدين على مواصلة المقاومة ضدهم.

وعندما استقر خير الدين باشا في جزيرة جربة بصورة مؤقتة إلى أن يتمكن من إعادة السيطرة على الجزائر مرة ثانية بعد حدوث بعض التمردات فيها ، شعر الأسبان بالقلق من وجوده هناك لما يسببه ذلك من تهديد خطير على مراكز نفوذهم في طرابلس الغرب[١٦]. ولذا أسرعوا إلى إرسال نائب الملك في صقلية هوجو منكادا (Hogoe Moncade) على رأس حملة مؤلفة من أسطول يضم (١٠٠) سفينة و (١٣٥٠٠) من المشاة و(١٠٠٠) من الفرسان ضد جربة [١٧] ، وقد حدثت معارك بين الطرفين ، اضطر على أثرها شيخ الجزيرة طلب الصلح ، فتم له ذلك مقابل شروط عدة كان من ضمنها دفع أتاوة سنوية لأسبانيا ، ومنع التجاء المجاهدين للجزيرة ، وكذلك إرسال وفد إلى الإمبراطور شارل الخامس لإعلان الدخول في طاعته ، لكن شيخ الجزيرة لم يلتزم بوثيقة الصلح تلك ، فما أن رحل الأسبان عن الجزيرة حتى قام بإحراق الوثيقة[١٨]. وظلت جزيرة جربة تشكل تهديداً خطيراً لمواقع الأسبان في طرابلس الغرب[١٩].

وفي غضون ذلك أعلن سكان طرابلس الغرب تأييدهم للعثمانيين ، ودعم جهودهم في العمل ضد الأسبان[٢٠]. وقد أكدوا ذلك عندما قاموا بإرسال وفد من تاجوراء إلى السلطان سليم الأول (١٥٢٠ – ١٥٦٦) يطلبون مساعدته لتحرير بلادهم من الأسبان[٢١]. ورغم تباين آراء

المؤرخين حول قضية الوفد[٢٢]. إلا أن الوفد أكد على ولاء سكان طرابلس الغرب للدولة العثمانية[٢٣].

وما أن تولى السلطان سليمان القانوني عرش الدولة العثمانية في عام ١٥٢٠م حتى شمل طرابلس الغرب باهتماماته الأولية عن طريق تقديم العون والمساعدة لسكان تاجوراء إيفاءً لطلب الوفد الذي كان قد التقى مع والده السلطان سليم الأول ، فقد قام السلطان سليمان القانوني بإرسال قوة عثمانية بقيادة مراد آغا[٢٤]، إلى تاجوراء لتولي أمرها ، ولمواجهة الأسبان الموجودين في طرابلس الغرب ، وقد استقبله سكانها بكل حفاوة وترحاب . ثم بدأ مراد آغا النظر في أمور البلاد وترتيب أوضاعها ، لكي يتسنى له فيما بعد الهجوم على طرابلس الغرب وفتحها[٢٥].

وعندما شن غاراته الأولى عليها عام ١٥٢١ وجدها محصنة بالحامية الأسبانية ، بحيث تعذر عليه اقتحامها ، لذلك أرسل إلى السلطان العثماني يطلب منه المدد لتنفيذ عملية الهجوم على طرابلس الغرب ، وقبل أن تصله مساعدات السلطان ، قام ببناء قلعة صغيرة بين تاجوراء وطرابلس الغرب لتكون قاعدة انطلاقه نحوها[٢٦].

وفي غضون ذلك كان الشيخ عبد الله المرابط قد عاد مع (٥٠٠) عائلة إلى طرابلس الغرب[٢٧]، فتأمل الأسبان عودة الحياة الطبيعية إلى المدينة ، وانتعاشها تجارياً ، لكن ذلك كان مستحيلاً في ظل الحصار الذي كان قد فرضه عليها مراد آغا ، بحيث منع عنها الاتصال بالدواخل أو التجارة مع أفريقيا جنوب الصحراء[٢٨].

وبسبب الغارات المتكررة على الحامية الأسبانية ، وسوء أوضاعها المعاشية[٢٩]، ولانشغال الإمبراطور شارل الخامس بحروبه مع فرانسو الأول ملك فرنسا ، فضلاً عن محاربته اللوثريين في ألمانيا[٣٠]، قرر الإمبراطور شارل الخامس تسليم المدينة لفرسان القديس يوحنا[٣١]، ليضمن بذلك حماية ممتلكاته في جنوب إيطاليا ، وللمحافظة على الملاحة في الجزء الأوسط من البحر المتوسط ، فضلاً عن التخلص من الأعباء المالية الضخمة التي تصرف على الحامية الموجودة هناك ، مع ضمان بقاء تلك المدينة تحت سيطرته[٣٢].

وافق فرسان القديس يوحنا على تسلم طرابلس الغرب في عام ١٥٣٠م وهم مكرهون على ذلك ، لمعرفتهم بما سيتعرضون له هناك من محاربة الطرابلسيين من جهة ، والعثمانيين من جهة أخرى ، لكنهم اضطروا على ذلك الأمر[٣٣]، وقد تم تعيين كاسبار دي سنقوسا (Gaspare de Sanguesse) أول حاكم من قبل فرسان القديس يوحنا على طرابلس الغرب، والذي اتبع نظاماً إدارياً حازماً في المدينة[٣٤]، في حين ظلت الأوضاع الاقتصادية فيها على ما هي عليه ، حيث كان الفرسان يستوردون موارد التموين من صقلية ، التي رفضت فيما بعد إمدادهم بالمواد الغذائية على اعتبار أن منظمة فرسان القديس يوحنا ليست جزءاً من صقلية وعليهم دفع رسوم كمركية على البضائع التي يستوردونها منها ، وكاد فرسان القديس يوحنا أن يتركوا طرابلس الغرب لولا

وساطة البابا مع الإمبراطور شارل الخامس بالموافقة على السماح لهم بالمتاجرة مع جميع الموانئ التابعة له من دون فرض ضرائب عليهم[٣٥].

لكن المشكلة لم تنته بهذا الإجراء ، نظراً للمخاطر التي كانت تتعرض لها سفن الفرسان المذكورين أثناء ذلك لبعد المسافة بين طرابلس الغرب ومالطة ، فضلاً عن المخاطر التي كانت تتعرض لها أثناء عبور مضيق صقلية الذي كان ساحة حرب بين القوى المتصارعة في البحر المتوسط ، كما أن ميناء طرابلس الغرب كان مكشوفاً مما يجعله معرضاً للعواصف البحرية ولهجمات المجاهدين المستمرة[٣٦].

وإزاء تلك الأوضاع السيئة ، قرر الحاكم الجديد برناردينو ماشادو (Bernardino Machado) الاستفادة من المناطق المجاورة لطرابلس الغرب ، فاستولى على المنصورية، جنزور ، المايه ، الزاوية وصبراته ، وفرض عليها أتاوة سنوية[٣٧].

وفي هذه الفترة ، بدأت بوادر تقارب بين السلطان الحفصي أبي محمد الحسن (١٥٢٦ – ١٥٤٣م) سلطان تونس مع فرسان القديس يوحنا في طرابلس الغرب ، عندما عرض السلطان الحفصي عليهم الدخول في معاهدة صداقة ودفاع ضد العثمانيين ، لأن السلطان الحفصي كان يخشى امتداد النفوذ العثماني إلى تونس لذلك فضل التحالف مع النصارى من أجل الحفاظ على عرشه[٣٨]. لم يوافق حاكم طرابلس الغرب على ذلك الطلب إلا بعد استشارة المرشد الأكبر للمنظمة في مالطة دي ليل آدم ، كما طلب من أبي محمد الحسن عدم إرسال أي معونة إلى سكان تاجوراء ريثما تتم الموافقة على المعاهدة المقترحة ، فوجد سكان القرى والضواحي أنفسهم محصورين بين ضغط فرسان القديس يوحنا ، وحليفهم الجديد السلطان الحفصي ، فدفعهم ذلك إلى الخضوع لفرسان القديس يوحنا[٣٩]، عدا بلدتي جنزور وتاجوراء اللتين كانتا تهددان طرابلس الغرب باستمرار ، حيث كان يحكمها شيوخ مستقلون ، وقد وجد فيهم مراد آغا معاونة فعالة ضد فرسان القديس يوحنا[٤٠].

لم تستمر جنزور في مقاومتها ، فقد أعلن شيوخها استسلامهم لحاكم طرابلس الغرب حفاظاً على مصالحهم التجارية ،في حين استمر مجاهدو تاجوراء في مقاومتهم لحاكم طرابلس الغرب ، ولم يستطع فرسان القديس يوحنا إخضاعها[٤١].

لما علم خير الدين باشا بربروسا بهذه الأمور ، توجه بأسطوله نحو تاجوراء وسيطر عليها ، ثم ترك فيها أحد قادته المشهورين ويدعى خير الدين قرمان[٤٢]، والذي يلقب بمطارد الشيطان[٤٣]، بينما أطلقت عليه المصادر الأوربية أسم (ملك تاجوراء)[٤٤].

ومنذ بداية استلام خير الدين باشا قرمان تاجوراء عمل على إجبار شيوخ جنزور على فسخ الحلف الذي كانوا قد عقدوه مع فرسان القديس يوحنا[٤٥]. ثم شرع في تحصين بلدة تاجوراء بالأبراج العالية المزودة بالمدافع ، وشكل جيشاً إلى جانب القوة التي تركها له خير الدين باشا

بربروسا ، ضم متطوعي سكان تاجوراء والمناطق المجاورة لطرابلس ، وجهزهم بالأسلحة والذخائر التي كانت تصله من خير الدين باشا بربروسا ومن الدولة العثمانية أيضاً، كما أنشأ مرفأ صغيراً لرسو واستقبال السفن القادمة إليه[٤٦]، ثم أنشأ قلعة حصينة بالقرب من طرابلس سميت (برج القائد)[٤٧].

بدأ خير الدين قرمان عمله العسكري بصد هجمات الحفصيين إلى أن تمكن ، وبمساعدة من خير الدين باشا بربروسا ، من إبعادهم عن تاجوراء[٤٨]، ليركز اهتمامه فيما بعد لمقاتلة فرسان القديس يوحنا في طرابلس الغرب ، فشرع في فرض حصار عليها . ثم أخذ يشن الهجمات المتوالية على المدينة بعد تضييق الحصار عليهم ، لكن خير الدين قرمان لم يستطع أن يقتحم المدينة[٤٩]، لشدة الحماية المفروضة عليها من قبل القائد مرتين اوريليو بوتيجلا (M.Aurelio Bottgella) لا سيما بعد الإمدادات التي تلقاها من رئاسة المنظمة في مالطة[٥٠].

في هذه الفترة كان خير الدين باشا بربروسا قد استدعي إلى استانبول لقيادة الأسطول العثماني ، إلا أنه ظل يتابع تطور الأحداث في طرابلس الغرب ، وما كان يسببه الحفصيون من مضايقات تجاه عمل خير الدين قرمان ، فقرر إدخال تونس تحت النفوذ العثماني.

فلما علم دي ليل آدم المرشد الأكبر لمنظمة فرسان القديس يوحنا ، بخروج خير الدين باشا بربروسا من استانبول ، قام بإرسال نجدة عسكرية إلى طرابلس الغرب خشية تعرضها إلى هجوم مباغت[٥١]. ولما علم المرشد الأكبر بوجهة تحرك خير الدين باشا بربروسا ، والتي استولى فيها على تونس عام ١٥٣٤م ، بعث رسالة إلى حاكم طرابلس الغرب يدعوه فيها إلى أخذ الاحتياطات الكافية من حيث الالتزام بالانضباط العسكري ، ومعاقبة المخالفين ، وتسليح السفن ، وتخزين المواد الغذائية ، لأن القلعة قد تتعرض إلى حصار طويل أو هجوم من قبل خير الدين باشا بربروسا ، الذي تمكن من السيطرة على تونس ، كما أوصى حاكم طرابلس الغرب بإعادة النجدة العسكرية التي أرسلت إلي طرابلس الغرب في حالة زوال خطر خير الدين باشا بربروسا[٥٢].

واجه فرسان القديس يوحنا مشاكل كبيرة في طرابلس الغرب لا سيما بعد استيلاء خير الدين باشا بربروسا على تونس ، كما رافق ذلك وفاة المرشد الأكبر دي ليل ادم ، الذي بموته فقد فرسان القديس يوحنا شخصية قيادية مهمة . بالرغم من الجهود التي بذلها المرشد الأكبر الجديد – بيترينو ديل بونتي Petrino Del Ponte (١٥٣٤-١٥٣٥م) – للمنظمة[٥٣].

استغل خير الدين قرمان هذه الأوضاع ، للقيام بهجوم على طرابلس الغرب ، إلا أن حاكم المدينة جورج شيلينج (George Schiling) علم بموعد ذلك الهجوم عن طريق جواسيسه[٥٤]، لذلك عمل على زيادة حماية المدينة ريثما تصله الإمدادات التي بعث بطلبها من مالطة[٥٥] ، وكاد خير الدين قرمان أن يدخل المدينة[٥٦]، لولا وصول الإمدادات العسكرية من

مالطة ، والتي أخذت بالتقدم خارج أسوار المدينة ، فتحول موقف المجاهدين من الهجوم إلى الدفاع ، أصيب خلالها خير الدين قرمان بجرح بليغ جعله غير قادر على مواصلة القتال حيث نقل على أثرها إلى تاجوراء(٥٧)، فتقدمت على أثر ذلك قوات حاكم طرابلس الغرب نحو قلعة برج القائد حيث عملت على نسفها ، والقضاء على الحامية الموجودة بداخلها(٥٨)، كما استطاعت تلك القوات من إخضاع بلدة جنزور والمناطق الغربية من تاجوراء(٥٩).

وبسبب انشغال خير الدين باشا بربروسا في عامي (١٥٣٧-١٥٣٨م) في الصراع مع الأسبان في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، توقفت المواجهة مع فرسان القديس يوحنا في طرابلس الغرب خلال هذه الفترة(٦٠).

وعلى الرغم من ذلك قام خير الدين باشا بربروسا في عام ١٥٣٧م بتعيين أحد مساعديه وهو مراد آغا حاكماً على تاجوراء مكافأة له على خدماته للدولة العثمانية محل خير الدين قرمان(٦١)، وقد تمتع مراد آغا بنفوذ قوي ، وشهرة واسعة بين السكان ، لما امتاز به من خلق رفيع وتواضع كبير . وقد وصفه أحد المؤرخين الليبيين بقوله : " كان أعظم الحكام العثمانيين في طرابلس "(٦٢) ، بينما أطلق عليه المؤرخون الغربيون لقب (ملك تاجوراء) كسلفه خير الدين قرمان(٦٣).

أخذ مراد آغا بإعداد قوات المجاهدين من جديد ، وعمل على تدعيم تحصيناته في تاجوراء ، وأقام الحواجز على الطرق ، ووضع عليها نقط الحراسة ، فقطع بذلك طرق المواصلات التي تربط طرابلس الغرب بمناطق الدواخل لغرض فرض الحصار الاقتصادي على فرسان القديس يوحنا(٦٤).

أدرك حاكم طرابلس الغرب خطورة التهديد الذي يشكله مراد آغا على قواته ، لا سيما وأن تحصينات طرابلس الغرب قديمة ، وحاميتها قليلة لا تستطيع أن تصد أي هجوم إذا اشتركت القوات العثمانية مع قوات مراد آغا(٦٥)، لذلك بادر رئيس المنظمة بالطلب من الإمبراطور شارل الخامس بتحصين المدينة من جميع الجهات بالأسوار والأبراج(٦٦).

وبينما كان مراد آغا يشن غاراته المتكررة على طرابلس الغرب ، كان طرغوت ريس(٦٧)، يهاجم جزيرة كورسيكا ، فأرسل إليه خير الدين باشا في عام ١٥٤٠م ليكلفه بمهمة تدمير أسطول منظمة فرسان القديس يوحنا في مالطة ، لكنه وقع في الأسر أثر كمين دبره له أندريا دوريا بالاشتراك مع فرسان القديس يوحنا في ١٥ حزيران من العام ذاته(٦٨).

ومع ذلك تابع مراد آغا جهوده في مواجهة فرسان القديس في طرابلس الغرب ، الذين ازداد وضعهم سوءاً بعد فشل الإمبراطور شارل الخامس في السيطرة على الجزائر عام ١٥٤١م(٦٩)، ووصول سفينتين عثمانيتين مع (٣٠٠) جندي إلى تاجوراء في عام ١٥٤٢م عندما كلف مراد آغا بمهمة فتح طرابلس الغرب ، فوجه المرشد الأكبر لفرسان القديس يوحنا على الفور

نداءاً إلى نائب ملك صقلية يطلب منه إمدادهم بالمساعدات لتحصين المدينة وزيادة حاميتها ، لكن الأخير لم يستجب لهذا النداء ، مما اضطر المرشد الأكبر إلى تجنيد حوالي (٢٦٠) جندياً على حسابه الخاص[٧٠]، كما أرسل أربع سفن يقودها القائد العام لبحرية المنظمة[٧١]، للتعاون مع حاكم طرابلس الغرب فرناردو دي براكامونتي (Fernordo De Bracamonte) من أجل تحصينها وزيادة دفاعاتها لكي تتمكن من صد هجوم مراد آغا من جهتي البر والبحر[٧٢].

كان لوصول التعزيزات العثمانية رد فعل لدى سكان المناطق التي أخضعها فرسان القديس يوحنا ، فأعلنوا خروجهم عن طاعتهم وامتنعوا عن دفع الضرائب[٧٣]، فكانت فرصة لمراد آغا أن يوسع من نطاق نفوذه ، فتوجه على رأس قوة مؤلفة من (٤٠٠٠) مقاتل أخضع بها كل من مسلاته وترهونه القريبتين من طرابلس الغرب[٧٤]. ووضع فرقة من قواته عند قبيلة أبي دبوس الذين كانوا ينتقلون بين الضواحي ويتعرضون للقوافل القادمة إلى طرابلس الغرب[٧٥]، كما اصبح مراد آغا قائداً على غريان ، وبهذا تمكن من أن يوحد معظم مناطق طرابلس الغرب تحت نفوذه[٧٦].

تلقى فرسان القديس يوحنا ضربة جديدة بفقدان حليفهم أبي الحسن في عام ١٥٤٣م عندما خلع عن العرش ، ونصب ولده أبا العباس المتحالف مع العثمانيين بدلاً عنه[٧٧].

وفي ظل هذه الإجراءات ، أرسل المرشد الأكبر لفرسان القديس يوحنا قائد بحريته إلى طرابلس الغرب مرة أخرى ، وبتعليمات صارمة لأخذ الحيطة والحذر من هجوم مفاجئ قد تشنه القوات العثمانية ، ثم أرسل وفداً إلى الإمبراطور شارل الخامس يُبيّن له الحالة التي وصلت إليها طرابلس الغرب ، ويطلب منه العون والمساعدة في ذلك ، فتعهد الإمبراطور بتقديم المساعدة في حالة تعرضهم للهجوم المباشر فقط[٧٨].

وفي الأعوام (١٥٤٤ـ١٥٤٧م) سادت مرحلة من الهدوء النسبي في كافة أنحاء أوربا عندما استهل بصلح بين الإمبراطور شارل الخامس وملك فرنسا فرانسوا الأول[٧٩]، ثم أعقبه عام ١٥٤٥م هدنة بين الإمبراطور شارل الخامس والسلطان سليمان القانوني[٨٠].

لم يستفد فرسان القديس يوحنا من مرحلة السلام هذه ، بل كان عليهم أن يواجهوا خطراً جديداً يتمثل ببروز قوة طرغوت ريس بعد أن عمل خير الدين باشا بربروسا أثناء وجوده في طولون بفرنسا ، على إطلاق سراحه مقابل (٣,٠٠٠) قطعة ذهبية أعطيت لأندريا دوريا[٨١]. حينئذٍ زوده خير الدين باشا بربروسا بسفينة حربية ضخمة لممارسة نشاطه البحري في الحوض الغربي للبحر المتوسط[٨٢].

ومنذ ذلك الوقت شرع طرغوت ريس بحملاته البحرية ضد السواحل الأسبانية والمدن الإيطالية ، واستطاع أن يكوّن له أسطولاً صغيراً مؤلفاً من (٢٠) سفينة[٨٣] ، وجعل جزيرة جربة

قاعدة انطلاقه بعد أن تفاهم مع سلطان تونس على منحه حصة من الغنائم والاموال مقابل تزويده بالأرزاق والذخيرة[٨٤].

ظهر تهديد طرغوت ريس ضد فرسان القديس يوحنا بشكل واضح عندما قدم دعماً عسكرياً لمراد آغا في طرابلس الغرب ، ففي عام ١٥٤٤م وصل طرغوت ريس مع عشر من سفنه أمام مالطة التي لم تكن هدفه ، لأنها كانت محكمة التحصين ، بل كان هدفه سفن منظمة فرسان القديس يوحنا التي علم أنها في مهمة بجانب صقلية ، لكن سرعة رد الحامية اضطرته إلى الانسحاب بعد أن كبدته بعض الخسائر ، كان من ضمنها استشهاد شقيقه[٨٥]، ومنذ ذلك الوقت لجأ طرغوت ريس إلى اتباع سياسة فرض الحصار البحري على السواحل الأوربية الشمالية ، إذ لم تكن لديه الإمكانية الكافية على مهاجمة تحصينات مالطة وطرابلس الغرب، وحتى أسطول منظمة فرسان القديس يوحنا ذي القدرة القتالية العالية في البحر المتوسط ، فأخذ يهاجم السفن المحملة بالمؤن القادمة من صقلية ، وبذلك نجح في فرض حصار اقتصادي على منظمة فرسان القديس يوحنا بحراً ، كالذي فرضه مراد آغا على طرابلس الغرب براً. وقد حاول فرسان القديس يوحنا – وبمساعدة نائب ملك صقلية والبابا وأندريا دوريا – مطاردة طرغوت ريس والقضاء عليه ، لكنهم فشلوا في محاولتهم هذه[٨٦].

وفي أثناء ذلك أثيرت لفرسان القديس يوحنا مشكلة هروب الرهائن الموجودين عندهم من سكان المنطقة الغربية لطرابلس الغرب ، فبعث حاكم طرابلس الغرب قوة صغيرة لملاحقتهم واستعادتهم ، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك لأن سكان منطقة المابة ، وهي قرية تبعد (٣٠) كيلو متراً غربي طرابلس الغرب ، قبضوا عليهم وباعوهم إلى مراد آغا ، فغضب فرسان القديس يوحنا غضباً شديداً[٨٧]، لأنهم خشوا أن يؤدي ذلك إلى إثارة عصيان مسلح من قبل سكان المنطقة الغربية تجاههم في الوقت الذي كان مراد آغا يهدد طرابلس الغرب بين الحين والآخر عبر سفينتين من سفنه اللتين كانتا تقومان بأعمال دورية لمراقبة الميناء لمنع دخول أية سفينة إلى داخل البلاد ، فتأثرت بذلك تجارة فرسان القديس يوحنا البحرية[٨٨]، فضلاً عن الحصار الذي كان قد فرضه طرغوت ريس آنذاك.

إزاء تلك المخاطر أعلن حاكم المدينة ضرورة القيام بحملات عسكرية تأديبية لكافة المناطق وأولها منطقة المابة من اجل إخضاعها ، إلا أن هذه الحملات لم تسفر عن نتيجة تذكر[٨٩]. لذلك قرر المرشد الأكبر لفرسان القديس يوحنا في عام ١٥٤٦م تعيين لافاليتي Lafality القائد العام لبحرية المنظمة – ثالث أهم شخصية في المنظمة – حاكماً على طرابلس الغرب[٩٠]، لعله يستطيع ضبط أمورها ، وقد استهل لافاليتي حكمه (١٥٤٦ – ١٥٤٩م) بقيادة عدة حملات عسكرية ضد مراد آغا ، تمكن في إحداها من إحراق إحدى سفن الأخير الراسية في الميناء لحمايته ، فكسر بذلك نطاق الحصار الذي فرضه مراد آغا على المدينة[٩١].

كان رد فعل مراد آغا على ذلك أن قرر مهاجمة طرابلس الغرب بسفينته الوحيدة، وبعض السفن العائدة لسكان جربة ، لكنه عدل عن هذا القرار لصعوبة ذلك . وأرسل على الفور إحدى السفن إلى استانبول لطلب المساعدة من السلطان سليمان القانوني لغرض الهجوم على طرابلس الغرب قبل أن يكمل لافاليتي عمله ببناء الأسوار التي كان قد بدأها[٩٢].

كما أرسل حاكم طرابلس الغرب في الوقت ذاته إلى المرشد الأكبر للمنظمة يطلب منه إمداده ب – (٤,٠٠٠) جندي ، فضلاً عن مخاطبة البابا في ذات الأمر ، لكن البابا اعتذر عن تقديم أي عون لهم[٩٣].

أعقبت فترة وفاة خير الدين باشا بربروسا حالة من السلم في البحر المتوسط بفضل اتفاقية الصلح التي كانت مدتها خمس سنوات بين الإمبراطور شارل الخامس والسلطان سليمان القانوني في ١٤/حزيران/١٥٤٧م التي حلت محل هدنة عام ١٥٤٥م[٩٤]، لكن طرغوت ريس لم يلتزم بهذه الاتفاقية ، عندما أعلن أنه غير مرتبط بأحد وأن ارتباطه بالدولة العثمانية ارتباط معنوي ، ثم شن هجوماً مباغتاً على مالطة في العام ذاته وتمكن رجاله من النزول إلى البر دون ملاحظة الحراس ، وعملوا على تخريب ثلاث قرى وأسر (٣٠٠) من سكانها ، لكنهم اضطروا إلى الانسحاب مع نصف الغنائم التي حصلوا عليها ، لفرار سكان المناطق المجاورة لتلك القرى عند سماعهم بالهجوم[٩٥].

ثم سعى طرغوت ريس إلى توسيع نطاق عملياته الحربية ، فقسم أسطوله إلى مجموعات كل مجموعة تنطلق نحو جهة معينة كإيطاليا ، وسواحل أسبانيا ، وجزر الباليار وجزيرة كورسيكا ، فضلاً عن هجماته المباغتة للسفن المحملة بالحبوب ، والقادمة من السواحل الجنوبية لصقلية[٩٦].

زار طرغوت ريس تونس عام ١٥٤٨م وأقام علاقات طيبة مع السلطان الجديد أبي العباس أحمد ، وقدم له هدايا ثمينة ، فوعده بمساعدته وتزويده بالمؤن والمدافع والأعتدة[٩٧].

أصبح الوضع في طرابلس الغرب ضعيفاً في هذه الآونة ، بحيث لم تعد الحامية الموجودة فيها قادرة على الصمود[٩٨]، لذ فكرت منظمة القديس يوحنا عام ١٥٤٨م نقل مقرها من مالطة إلى طرابلس الغرب بناءً على اقتراحات قدمت من بعض رجالها ، درست فيها كل

نتائج هذه الإقامة والإمكانيات اللازمة لمواجهتها[٩٩]،لكن الموضوع ترك دون حل نهائي[١٠٠].

ويبدو أن تمكن طرغوت ريس حينئذٍ من الاستيلاء على سفينة تحمل مداخيل فرسان القديس يوحنا المالية والتي قدرت بـ (٢٠) ألف دوكة[١٠١]، أسهم أيضاً في تغيير خطة الانتقال التي كان من المقرر القيام بها ، لذلك فكر المرشد الأكبر للمنظمة في التقليل من عناصره في

طرابلس الغرب ، تمهيداً لإخلائها في مرحلة لاحقة ، كما قرر نقل الأموال والممتلكات من طرابلس الغرب إلى مالطة ، وبذل جهداً كبيراً من أجل أن تصل بسلام إلى مالطة(١٠٢).

وفي عام ١٥٤٩م شنَّ لافاليتي هجوماً مباغتاً على مراد آغا أثناء قيامه بزيارة أحد أصدقائه في المنشية – الواقعة على الضفة اليسرى من نهر النيل في مصر على بعد (٣٣١) ميلاً من القاهرة (١٠٣) – ويدعى ابن شوشانة ، وكاد مراد آغا أن يقع أسيراً في يد لافاليتي لولا تمكنه من الهرب ، ودفاع أبن شوشانة عنه حتى وقع أسيراً بيد قوات لافاليتي ، لكن فرسان القديس يوحنا أفرجوا عنه على أمل الاستعانة بنفوذه في إخضاع القبائل ، لكن ابن شوشانة اتفق سراً مع مراد آغا على قتال فرسان القديس يوحنا ، فلما علم حاكم طرابلس الغرب بذلك قام بإلقاء القبض على ابن شوشانه مرة ثانية مع صديقه أحمد بن جوهرة مع عددٍ من رجاله، وأرسلهم إلى مالطة لمحاكمتهم ، وعندما لم تثبت عليهم أية تهمة ، أطلق سراحهم(١٠٤).

أما بالنسبة إلى طرغوت ريس ، فقد استمر في عملياته البحرية التي وجهها ضد الموانئ التونسية مستغلاً حالة الضعف والاضطرابات التي كانت تعانيها البلاد في تلك الفترة ، فاستولى على سوسة والمنستير وصفاقس التي اتخذها مركزاً لشن غاراته على سواحل إيطاليا وأسبانيا ، مما أثار قلق الإمبراطور شارل الخامس ، فأمر أندريا دوريا بملاحقته ، ووضع حدٍ لعملياته ، لكن طرغوت ريس تمكن من إخفاء أسطوله في جربة(١٠٥).

وقد تمكن طرغوت ريس وبمساعدة مراد آغا من إعادة السيطرة على مدينة المهدية في عام ١٥٤٩م(١٠٦)، واتخذها قاعدة انطلاق لعملياته ضد السواحل الأسبانية والإيطالية(١٠٧)، نظراً لما امتازت به من موقع استراتيجي مهم يسهل له القيام بعملياته البحرية.فقد ذكرها أحد المؤرخين بقوله : " أنها أفضل القلاع البحرية التي تصلح راس جسر لمهاجمة مالطة وشواطئ صقلية ، وحماية جربة وشواطئ طرابلس الغرب "(١٠٨)، وأثار عمله هذا مخاوف أسبانيا ، فقدم الإمبراطور شارل الخامس احتجاجاً إلى السلطان العثماني في ١٢ نيسان ١٥٥٠م واصفاً أعمال طرغوت ريس بأنها انتهاك متعمد للإتفاق القائم بين الأسبان والدولة العثمانية، فاستدعاه الصدر الأعظم رستم باشا إلى استانبول لاستيضاح الأمر منه ، لكن طرغوت ريس لم يلبِ الدعوة(١٠٩).

ظن الأسبان أن طرغوت ريس لا يعترف بالتبعية للدولة العثمانية وأنه لا ينتظر مساعدة من أحد(١١٠)، فوجدوا من الضروري العمل على إبعاده عن المواقع التي سيطر عليها، لذلك أعدوا حملة عسكرية كبيرة لتوجيهها ضد تونس ، تولى القيادة العامة لها أندريا دوريا رغم كبر سنه . وتألف أسطول من (٨٠) سفينة حملت بعضاً منها (٤٠) مدفع حصار ، وكميات كبيرة من الذخائر والأعتدة ، و (٤٠٠٠) جندي إنزال بقيادة نائب ملك صقلية دون جوان دي فيغا (Don Juan de Vega)(١١١)، كما ضمت الحملة قوات القبطان العام لحلف الوادي، وفرسان القديس

يوحنا، فضلاً عن قوات تعود إلى حاكم القيروان الشابي محمد بن أبي الطيب، بحيث أصبح مجمل عدد القوات حوالي (١٥٠٠٠) مقاتل[١١٢].

تحرك الأسطول باتجاه المهدية ، ونجح خلال تقدمه من احتلال كل من سوسه وصفاقس والمنستير من دون مقاومة تذكر، نظراً لغياب طرغوت ريس في إحدى حملاته البحرية ، مما سهل الأمر على أندريا دوريا للقيام بمهمته ضد المهدية[١١٣].

وفي ٢٢ حزيران ١٥٥٠م اقترب أسطول أندريا دوريا من المهدية ، وفرض عليها حصاراً ، صمد خلاله سكانها مدة (٨٠) يوماً ، رغم الفارق الكبير بينهم وبين المهاجمين من حيث القوة والإمكانيات العسكرية ، وقد تولى الدفاع عن المدينة خيسار ريس ، ابن شقيق طرغوت ريس ، يسانده في ذلك الأهالي والمقاتلين العرب ، وفي ١٠ أيلول ١٥٥٠ أقتحم دوريا المدينة ، وحدثت معركة قصيرة وعنيفة بين قواته وبين المدافعين عنها قتل خلالها ابن شقيق طرغوت ريس ، وسبيّ حوالي (٧٠٠٠) شخص تم اقتسامهم كرقيق وسبايا بين القوات المشاركة في الحملة[١١٤].

ما أن علم طرغوت ريس بذلك حتى عاد مسرعاً ومعه قوة متطوعة من المغاربة والعثمانيين لنجدة المدينة ، كما قام في الوقت ذاته بإرسال أربع سفن إلى مراد آغا لطلب المساعدة ، ثم تقدم إلى مشارف المدينة ، وحدثت معركة عنيفة بينه وبين القوات المحتلة، أسفرت عن هزيمته فاضطر إلى العودة إلى جربة[١١٥]، أما القوة التي بعثها مراد آغا ، فقد هاجمها قائد أسطول مدينة نيس الفرنسية قرب تاجوراء ، وقتل بعض بحارتها ورجال مراد آغا ، وتمكن من بقي منهم النجاة هو والسفن المرسلة[١١٦].

وهكذا أصبحت مدينة المهدية تحت حكم الإمبراطور شارل الخامس الذي رغب في إعطائها إلى فرسان القديس يوحنا لحمايتها ، لكن منظمتهم رفضت ذلك لتجربتها السابقة في طرابلس الغرب[١١٧]، فوجد الإمبراطور أن حماية المدينة وتحصينها سيكلفه مبالغ باهضة ، لذلك أمر بتدمير المدينة عن آخرها لضمان عدم عودة طرغوت ريس إليها مرة أخرى[١١٨]، أما بقية مدن الساحل التي كان الأسبان قد احتلوها أثناء هذه الحملة، فقد أصبحت تحت نفوذ حاكم القيروان، حينئذٍ أصبح موقف توزر وتونس اللتين كانتا تحت حكم السلطان أبي العباس ضعيفاً، نظراً لما كانت تتعرض له من ضغوطات من قبل الحامية الأسبانية الموجودة في حلق الوادي[١١٩].

أما بالنسبة إلى طرغوت ريس الذي توجه بأسطوله نحو جربة ، فقد تعرض هناك إلى حصار من قبل أندريا دوريا ، واستطاع بخطة ذكية التخلص من ذلك الحصار المفروض عليه[١٢٠]، كما تمكن خلال ذلك من الاستيلاء على سفينة محملة بالإمدادات وهي في طريقها للانضمام إلى أسطول أندريا دوريا ، ثم توجه بعد ذلك إلى استانبول[١٢١].

حظي طرغوت ريس في استانبول بمقابلة السلطان سليمان القانوني[٢٠]، وشكى له ما وقع في المهدية على يد أولئك المحتلين ، والذي عده خرقاً للهدنة القائمة بين الدولة العثمانية وبين الإمبراطور شارل الخامس ، فتأثر السلطان بما حدث ، كما اعتبر سقوط المهدية بيد الأسبان سوف يؤدي إلى إضعاف النفوذ العثماني هناك بشكل كبير ، لأنهم فقدوا الساحل التونسي برمته باستثناء قاعدة على مصب وادي قابس ، وهي معرضة للتدمير من قبل الأسبان في أي وقت[١٢٣]، لذلك أرسل السلطان تهديداً إلى الإمبراطور شارل الخامس على ما قامت به قواته والقوات المشاركة معها في تلك المناطق ، فأجابه الإمبراطور : " أن الهدنة لم تكن تشمل القراصنة – يقصد طرغوت ريس وجماعته – وبأن شؤون أفريقيا لا تخصه على أية حال ... " ، فغضب السلطان لهذا الرد وأمر باستئناف الحرب ضد الأسبان [١٢٤]. وحينذاك عرض طرغوت ريس اقتراحاً على السلطان العثماني يقضي بطرد فرسان القديس يوحنا من جميع ممتلكاتهم ، لأنهم يقفون عائقاً في طريق سيطرته على البحر المتوسط ، كما تخوف من أن يقوموا بتكوين حلف مع قوى أوربية لتوجيه أنظارهم نحو الشرق لإستعادة رودس وجزر اليونان وسواحل فلسطين ومن هناك يتوجهوا براً نحو مصر[١٢٥].

وافق السلطان سليمان القانوني على اقتراح طرغوت ريس ، وأمر بإعداد أسطول ضخم تم الانتهاء من تجهيزه صيف عام ١٥٥١م ، وكان مؤلفاً من (١٢٠) سفينة يقودها الأميرال سنان باشا[١٢٦] – شقيق الوزير الأول للصدر الأعظم رستم باشا – كما انضم إليه كل من أسطولي صالح باشا والي الجزائر وطرغوت ريس[١٢٧]، الذي عينه السلطان سليمان القانوني بمنصب (رئيس رتبة) – أي قبطانا على (٥٠) سفينة[١٢٨].

انطلقت الحملة نحو صقلية ، ووصلتها في ١٣ تموز ١٥٥١م ، ثم قام سنان باشا بارسال رسالة إلى نائب ملك صقلية يطلب منه فيها تسليم مدينة المهدية ، فرفض نائب الملك ذلك، حينئذٍ قرر سنان باشا فرض حصاره على مالطة ، وقد نفذ ذلك في ١٨ تموز ، لكنه لم يكن موفقاً في عمله هذا[١٢٩]، بسبب المقاومة القوية التي واجهها ، فضلاً عن حصانة الجزيرة، واقتراب وصول أسطول أندريا دوريا نحو الجزيرة ، فانسحب على أثرها سنان باشا من مالطة[١٣٠]، ليتوجه بعد ذلك نحو جزيرة قوزو بناءً على اقتراح طرغوت ريس الذي كان يعلم بضعف تحصينها ، فأنزل العثمانيون قواتهم فيها ، واستطاعوا أن يحصلوا على (٥,٠٠٠) أسير منها[١٣١].

اتجه الأسطول العثماني بعد ذلك نحو طرابلس الغرب ، ووصلها في ١٥/آب من العام ذاته[١٣٢]، في الوقت الذي لم يكن فيه فرسان القديس يوحنا قد أخذوا احتياطاتهم الكافية للتصدي لمثل هذه الحملة ، كما أن التعزيزات التي بعثها المرشد الأكبر لمنظمة فرسان القديس يوحنا كانت ضعيفة ، على الرغم من معرفته بحجم الحملة العثمانية المتجهة نحو طرابلس الغرب، فقد

بعث كتاباً إلى حاكم طرابلس الغرب جاسباري دي فاليس (Gaspare De Vallies) جاء فيه : " وصلتنا معلومات من مصادر مختلفة تؤكد وصول الأسطول العثماني ، الذي يتجه إلى مالطة أو إلى قلعة طرابلس ، لذلك نطلب اتخاذ ما يلزم لتقوية القلعة ، وقد أرسلنا إليكم التعزيزات لمراقبة ساحل طرابلس الغرب ، وسوف يستلم غوليمو كوبيير Guglillmo Coupier – القائد الفرنسي – منصبي نائب الحاكم والممثل الشخصي لنا ، ويكون هو وبقية فرسان القديس يوحنا بأمرتنا ...ويتولى جيوفاني كالابرييزي G.Calabresi قيادتهم ويحتكم إليه عند حدوث أي منازعات بين جنوده الذين يجب أن يبقوا تحت أمرة ضباطهم ..."[١٣٣].

وفي الوقت الذي حاول فيه فرسان القديس يوحنا استنجاد أوربا لمساعدتهم ضد هذه الحملة ، فأن أحداً لم يستجب لهم ، بسبب اقتناعهم بعدم جدوى ذلك[١٣٤]، كما توسطوا لدى السفير الفرنسي في الدولة العثمانية أثناء مروره بمالطة ، من اجل إقناع سنان باشا بالعدول عن الهجوم على طرابلس الغرب ، فوافق السفير الفرنسي على ذلك واتجه إلى طرابلس الغرب مع السفن المرافقة له[١٣٥].

كان سنان باشا في ذلك الوقت منشغلاً مع مراد آغا وطرغوت ريس بوضع الخطط اللازمة للهجوم على طرابلس الغرب ، واتفقوا على فرض حصار على المدينة قبل اقتحامها[١٣٦].

بدأ سنان باشا بفرض الحصار على المدينة ، كما وجه إنذاراً إلى حاكم طرابلس الغرب لتسليم المدينة ، لكنه رد عليه بقوله : " أنه يفضل الموت على الاستسلام "[١٣٧].

وفي أثناء ذلك وصل السفير الفرنسي إلى طرابلس الغرب ، والتقى مع سنان باشا الذي استقبله باحترام كبير ، ثم عرض السفير الفرنسي طلبه على سنان باشا متوسلاً به باسم ملك فرنسا صديق السلطان سليمان القانوني ، فأجابه سنان باشا بأن السلطان سليمان القانوني يرغب بالاستيلاء على طرابلس الغرب بأي ثمن ، نظراً لما قدمه فرسان القديس يوحنا من مساعدات لقوات شارل الخامس أثناء استيلائهم على المهدية ، وكونهم لا زالوا مستمرين في حربهم ضد المسلمين . وإزاء ذلك قرر السفير الفرنسي السفر إلى استانبول لعرض طلبه على السلطان . فلم يسمح له سنان باشا بذلك قبل انتهاء عملياته الحربية[١٣٨].

أمر سنان باشا ببدء العمليات العسكرية ، وكانت الهجمات فيها عنيفة أشتبك فيها الطرفين من جهة البر والبحر ، إلى أن استطاعت القوات العثمانية السيطرة على طرابلس الغرب في ١٤ آب ١٥٥١م[١٣٩].

وفي ١٦ آب أقام سنان باشا احتفالاً كبيراً لانتصار العثمانيين في هذه الحملة التي تمكنوا فيها من فتح طرابلس الغرب[١٤٠]، وبعد يومين من ذلك أُجلى من تبقى من حامية فرسان القديس يوحنا إلى مالطة على سفن فرنسية ، كما أرسل الإيطاليين وبعض من أهالي المدينة إلى استانبول ، وقتل كل العرب الذين كانوا يقاتلون إلى جانب العدو باعتبارهم خونة[١٤١].

وبعد إتمام السيطرة العثمانية على طرابلس الغرب ، وقبل مغادرة سنان باشا لها عهد بولايتها إلى مراد آغا ،على الرغم من أنه كان قد وعد طرغوت ريس بهذه الولاية(١٤٢). وصدر في العام ذاته فرمان من السلطان بخصوص تعيين مراد آغا والياً على طرابلس الغرب فكان أول الولاة العثمانيين عليها(١٤٣).

باشر مراد آغا أعماله الإدارية للبلاد ، وأقسم أن يحترم القوانين العثمانية ويعمل بموجبها بكل أمانة وإخلاص(١٤٤)، وبرز ذلك بشكل واضح منذ السنوات الأولى لحكمه ، فقد انتعشت البلاد في جميع مجالاتها العامة ، كما أعاد لطرابلس مكانتها التجارية المهمة(١٤٥)، لكن الاهتمام الأكبر الذي أبداه مراد آغا كان تأمين البلاد والدفاع عنها ضد أي هجوم خارجي قد تتعرض له(١٤٦)، لا سيما بعد أن نجح طرغوت ريس من الحصول على موافقة الدولة العثمانية بإرسال فيالق من الإنكشارية لتعزيز الحامية الموجودة في طرابلس الغرب لمنع أي اعتداء يقع عليها من الأسبان أو من فرسان القديس يوحنا(١٤٧).

تمكن مراد آغا وبعد عام واحد ، من التصدي لقوات فرسان القديس يوحنا الذين شنوا هجوماً على منطقة زواوه التابعة لطرابلس الغرب(١٤٨)، وهي تبعد (٥٠) ميلاً عن جربة من جهة الشرق(١٤٩)، وعلى الرغم مما لحق بهم من خسائر فأن محاولاتهم للنيل من طرابلس الغرب ظلت مستمرة.

أقرّ مراد آغا الأمن والاستقرار في البلاد ، لا سيما بعد قضائه بكل قوة على بعض التمردات الداخلية التي أثيرت في هذه الفترة ، ثم انصرف بعد ذلك إلى القيام بالكثير من الأعمال الخيرية ، بحيث أوقف جميع أملاكه وثروته على بناء المساجد والزوايا والكتاتيب(١٥٠).

أما طرغوت ريس فقد تابع نشاطه البحري على الشواطئ الغربية للمتوسط بعد أن انضمت إليه سفن مجاهدي المغاربة ، كما انضم إليه سنان باشا الذي أخذ يستميله ويتودد إليه بعد أن فصلا أسطوليهما عن بعضهما منذ انتهاء الحملة على طرابلس الغرب ، وعدم قيامه بتعيينه والياً على طرابلس الغرب ، فأقنعه بالذهاب إلى استانبول محاولاً إرضاءه بوعود جديدة(١٥١).

وبعد إقامة قصيرة في استانبول ، غادر طرغوت ريس ومعه (٤٥) سفينة ، متوجهاً بها نحو شواطئ صقلية ، ووصل إلى جزيرة كورسيكا ، وحاصر عاصمتها ، وغنم منها الأسرى والغنائم التي عاد بها إلى استانبول ، فأثار بذلك إعجاب السلطان سليمان القانوني الذي وجد فيه مهارة خير الدين بربروسا(١٥٢)، حينئذٍ لبى طلبه بتعيينه والياً على طرابلس الغرب في عام ١٥٥٥م(١٥٣).

امتثل مراد آغا لأمر تعيين طرغوت ريس والياً على طرابلس ، وسلمه مهام الحكم وشؤون البلاد ،ثم انتقل بعد ذلك إلى تاجوراء لينصرف إلى العبادة ما بقي من أيام حياته(١٥٤).

انتهج طرغوت باشا أسلوباً عسكرياً في إدارة شؤون ولاية طرابلس الغرب ، وهو أسلوب لم يألفه سكانها من قبل ولذا تمردوا عليه ، فقد ثار ضده سكان جبل غريان وترهونه إلا أنه تمكن من إخضاعهم ، وأجبرهم على دفع مبلغ سنوي من المال لخزينة الدولة العثمانية، وترك حامية عسكرية في جبل غريان ، كما تمكن من إلحاق الهزيمة بالمرابط سيدي بن عرفة القيرواني ، الذي كان قد استعان بالأسبان ضد العثمانيين ، إلا أن طرغوت باشا تمكن منه حينما ألقى القبض على اتباعه كلهم ووضعهم مع أسرى النصارى[١٥٥].

وبعد أن أمّن وضع البلاد ، تابع طرغوت باشا نشاطه البحري في البحر المتوسط، بحيث ظل يشكل تهديداً خطيراً لفرسان القديس يوحنا ، بما يقوم به من غارات بحرية على السواحل الأوربية ، والتي يحصل منها على الكثير من الأسرى والغنائم التي كان يستخدمها في الإنفاق على مشاريعه التي كان يقوم بها في طرابلس الغرب[١٥٦].

أثارت إجراءات طرغوت باشا مشاعر القلق لدى الملك فيليب الثاني وزادت من حقد المرشد الأكبر لفرسان القديس يوحنا تجاهه ، وكان الأخير مصمماً على الثأر من طرغوت لما لحق بهم من هزائم على يديه والعثمانيين في طرابلس الغرب ، لذلك بدا فرسان القديس يوحنا يفكرون في الاستيلاء على طرابلس الغرب مرة ثانية ، بتحالف الأسبان وقوى أوربية أخرى معهم ، فقاموا بشن حملة قوية ضدها ، وللقضاء على المجاهدين الذين كانوا ينشرون الرعب في البحر المتوسط ، والعمل على طردهم من جميع الموانئ الموجودة في المغرب العربي لتحويلها إلى مستعمرات أوربية[١٥٧].

وفي عام ١٥٦٠ تم إعداد الحملة التي اشتركت فيها قوات من أسبانيا وصقلية ونابولي، ألمانيا ، مقاطعة البابوية ، فلورنسا ، فضلاً عن قوات فرسان القديس يوحنا ، وقد بلغ مجموع هذه القوات (١٤٠٠٠) مقاتل يقودها نائب ملك صقلية[١٥٨].

وعلى الرغم من التفوق العسكري لهذه الحملة ، فأنها كانت تفتقر إلى روح الانضباط والشعور بالمسؤولية ، بحيث تفككت الحملة وأخذت كل مجموعة تتلقى أوامرها من قائدها على حدة ، ومع ذلك استطاعت الحملة أن تصل إلى جربة ، واستغلت بعض العناصر العربية في حراسة الممر المؤدي إلى جربة لقاء رواتب تدفع لهم ، إلا أن شيخ جزيرة جربة (مسعود) الذي عينه العثمانيون عليها ، استطاع أن يخدع القوى الأوربية حيث تظاهر بالتحالف معهم، ثم نصب مع مجاهدي جربة كميناً للقوة الأوربية عندما أنزلوا جنودهم على الجزيرة ، فحدثت معركة عنيفة بين الطرفين ، قتل فيها الكثير من المجاهدين ، تمكنت على أثرها القوة الأوربية من السيطرة على الجزيرة[١٥٩].

أرسل قلج علي مبعوثاً من طرغوت باشا إلى استانبول لغرض طلب النجدة لما يتهدده من خطر كبير ، فلبت الدولة العثمانية طلبه ، وبعثت بأسطول كبير يقوده بيالة باشا، فلما وصل

غرب طرابلس الغرب انضمت إليه سفن قلج علي وطرغوت باشا لمواجهة القوة الأوربية ، ودخلوا في معركة عنيفة معها إلى أن تمكنوا من السيطرة على الجزيرة[١٦٠].

وبعد هذا الانتصار ، انشغل طرغوت باشا مدة خمسة أعوام في تعمير وتحصين طرابلس الغرب ، لم تخل أيضاً من ممارسة نشاطه البحري ضد مالطة[١٦١] ، التي ظلت تتحين الفرص للتخلص منه.

وفي نهاية عام ١٥٦٥م استولى فرسان القديس يوحنا على قلعة فيليز الواقعة على الساحل المغربي ، وكانت تحت النفوذ العثماني ، وصادف في الوقت ذاته تقريباً ، أن قامت سفن أسبانية بأسر سفن تابعة للسلطان العثماني ، فكان لهذين الحادثين أثر بالغ في نفس السلطان سليمان القانوني الذي قرر محق قوة فرسان القديس يوحنا ، الذين تمادوا في أذى المسلمين[١٦٢].

جهزت الدولة العثمانية في نيسان عام ١٥٦٥م أسطولاً ضخماً مؤلفاً من (١٥٠) سفينة[١٦٣] على متنها (٣٠٠٠٠) جندي إنزال ، بقيادة بيالة باشا ، كما تم تعيين الوزير مصطفى باشا قائد أعلى للقوات البرية[١٦٤]، وأثناء مسيرة الأسطول العثماني في البحر انضم إليه كل من قلج علي وجماعته وحسن بن خير الدين باشا والي الجزائر ، الذي قدم (٢٥٠٠) مقاتل ، فضلاً عن اشتراك طرغوت باشا ب – (٢٣) سفينة تحمل (٢١٠٠) مقاتل ، وقد باشر بيالة باشا منذ وصوله إلى أمام جزيرة مالطة بفرض حصار على إحدى القلاع التي تحرس مينائها دون انتظار طرغوت باشا الذي تأخر عنهم في الوصول ، فلما وصل الأخير وجد أن تحركاتهم بهذا الشكل كانت خاطئة ، والتراجع عن ذلك ليس في صالحهم بعد قطعهم شوطاً من الحصار، لذلك قرر طرغوت باشا القيام بالهجوم العسكري على مالطة ، في أثناء ذلك أصابت شظية قذيفة رأس طرغوت باشا أدت إلى استشهاده ، فاضطرب وضع الحملة لفقدانها هذا القائد ، كما أن اقتراب موعد الشتاء وقلة الأرزاق دفعها إلى الانسحاب دون أن تحقق شيئاً[١٦٥].

وقد أقيمت في طرابلس مراسيم جنازة مهيبة لطرغوت باشا ، نظراً لما قدمه هذا القائد البحري من بطولات وخدمات جليلة أسداها للدولة العثمانية عموماً ولطرابلس الغرب بشكل خاص[١٦٦]. ثم عين السلطان سليمان القانوني يحيى باشا والياً على طرابلس الغرب ، ولم تستمر ولايته سوى سنتين لم تذكر مصادر التاريخ عنه شيئاً سوى تاريخ وفاته عام ١٥٦٦م[١٦٧].

اضطرب وضع البلاد كثيراً بعد ذلك ، بسبب تأخر الدولة العثمانية في تعيين والي جديد[١٦٨]، وتولى ضباط الإنكشارية أمر البلاد ، فساءت الأحوال ، وعمت الفوضى[١٦٩]، مما قاد إلى حدوث تمرد في جبل غريان[١٧٠].

وفي عام ١٥٦٨م تم تعيين جعفر باشا والياً على طرابلس الغرب[١٧١]، وهو من أصل روسي تميز بالقسوة والعنف الشديدين ، وقد توسعت الولاية في عهده حتى أنها شملت إمارتي

سرت وبرقة اللتين كانتا مستقلتين، كما شملت سلطة الدولة كل من فزان والمناطق الصحراوية حتى حدود جرمه، واستطاع أن يخضع كل التمردات التي ثارت ضده فيما بعد[١٧٢].

الخاتمة

كان لعبقرية خير الدين بربروسا البحرية وشجاعته المتميزة الدور الكبير في إفشال الحملات العسكرية الأسبانية في المغرب العربي والحوض الغربي للبحر المتوسط ، بحيث شكل مصدر قلق ورعب عانت منه أسبانيا سنوات طويلة ، كبدها خلالها الكثير من الخسائر وألحق بها العديد من الهزائم التي لم تنته حتى في عهد خلفائه الذين تبنوا قيادة العمليات الجهادية البحرية ، وتضافرت جهودهم العسكرية معاً في مواجهة الخطر الأوربي الذي أخذ يكثف من تحركاته للسيطرة على طرابلس الغرب ، لا سيما بعد فشلهم في السيطرة على الجزائر ، لكن مساعيهم فشلت في ذلك أيضاً بعد دخول طرابلس الغرب تحت النفوذ العثماني، فقد كان لجهود الولاة العثمانيين الذين تعاقبوا على ولاية طرابلس الغرب الأثر البالغ في ديمومة المقاومة ضد التوسع الأوربي ، فضلاً عن دور رجال خير الدين المجربين (طرغوت ريس ، سنان باشا ، بيالة باشا) الدور الكبير في قيادة العمليات الجهادية البحرية ضد القوة الأوربية.

هوامش الدراسة

(١) احمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ١٤٩٢-١٧٩٢ ، (الجزائر ، د.ت) ، ص١٤٤ ؛ نيقولاي ايفانوف ، الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥٦١-١٥٧٤ ، نقله إلى العربية يوسف عطا الله ، (بيروت ، ١٩٨٨) ، ص٢١٦.

(٢) ايفانوف ، المصدر نفسه .

(٣) عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ، ج٢ ، (القاهرة ، ١٩٨٠) ، ص٩٢٧.

(٤) ايتوري روسي ، طرابلس الغرب تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا، ترجمة وتقديم : خليفة محمد التليسي، (طرابلس ، ١٩٦٩) ، ص ٦١ ؛ ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢١٧.

(٥) عُروج : ولد في عام ٨٧٨هـ/١٤٧٣م في جزيرة مثيلين التي يطلق عليها الأتراك جزيرة مدلي Midili. ينظر :أحمد بن أبي الضياف ، أتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج٢،(تونس،١٩٦٣)، ص٩ ؛ محمد كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، (القاهرة، ١٩٧٦، ص٥٩. بينما ذكرت بعض المصادر التركية انه ولد في قرية (ينجي قاردار) الواقعة بين سالونيك ومناستير . ينظر:

Ismail Hakki Uzuncarsili, Osmanli Tarihi , Cilt II, (Ankara,1988), S.382 ; Edwards Creasy, History of the ottoman Turks , (Beirut,1964), p.180;

الجزائري ، المصدر السابق ، ص٩٢.

وقد تضاربت المصادر في اسم عروج ولقبه وأصله ، فمنهم من أطلق عليه اسم أوروج والتي تعني بالتركية فريضة الصيام تيمناً بها. ينظر: جاسم محمد حسن العدول ، "عُروج ودوره في أحداث المغرب العربي وحوض البحر المتوسط" ، مجلة التربية والعلم ، العدد (٢) ، (الموصل ، ١٩٨٠)، ص١٩٣. وذكر مصدر آخر أن أسم عُروج ليس كما يلفظه بعض المؤرخين بفتح حرف العين وتشديد حرف الراء وإنما بضم العين والراء ، ويذكر أيضاً أن الاسم عربي صميم معناه الارتفاع والصعود ، دخل إلى اللغة التركية عن طريق حادث الإسراء والمعراج ، وأنه من المحتمل أن عرّوج ولد ليلة الإسراء والمعراج فسمي بذلك الاسم تيمناً بها . ينظر : المدني ، المصدر السابق، ص١٦٠. كما ذكرت المصادر أسماء أخرى لعرّوج منها (أردش) . ينظر: لبيب ، المصدر السابق، ص٨٣ ، وكذلك (هوداك) ، ينظر: هامرتن، المصدر السابق ، ص٦١٩. أما ما يخص لقبه فذكرت فيه آراء مختلفة وخاصة برباروس الذي أطلقه الأوربيون عليه وعلى أخيه خير الدين،والذي يعني اللحية الشقراء . ينظر:

Turkiye Diyanet vakfi , Islam Ansiklopedisi, cilt. 5, (Istanbul , 1972), S.65.

وهناك من يطلقه على عُروج استناداً للتقارب بين لقبه (بابا عُروج) وبرباروس . ينظر : شمس الدين سامي ، قاموس الأعلام ، استانبول. مهران ، مطبعة س ، ايكنجي جلد ، ١٣٠٨، ص١٠٧٩. في حين ذكرت بعض المصادر أن اللقب خاص بخير الدين فقط . ينظر: E.I , p.677 .

وذكر مصدر آخر أن عُروج كان يلقب (برباروس الأول) وخير الدين (برباروس الثاني). ينظر:الجزائري، المصدر السابق . ص ص٩٢-٩٣. والى جانب ذلك ظهرت آراء مختلفة في أصل عُروج ، فقد أكد مؤرخون أوربيون وبعض مؤرخي العرب أن عُروج من أصل أوربي يوناني. ينظر : كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، نقله إلى العربية: أمين فارس ومنير بعلبكي ، ط٤ ، (بيروت ، ١٩٦٥)، ص٤٥٣ ؛ صلاح العقاد ، المغرب العربي: الجزائر تونس المغرب الأقصى ، ط٣، (د.م،١٩٦٩)، ص١٩ ؛ الدسوقي ، المصدر السابق، ص٥٩؛ العدول ،عُروج ، ص ص١٩٤-١٩٥؛ فيليب حتي وآخرون

، تاريخ العرب (مطوّل)، ط٢، (بيروت ،١٩٥٣) ، ص٨٣٦ . وذكر مصدر انه من أصل الباني . ينظر :الزبيري ، المصدر السابق، ص٤١ . بينما عدّه المؤرخون العرب من اصل تركي . عمر فرّوخ ، وثبة المغرب، (بيروت ،١٩٦١) ، ص٢٢٠؛ العدول ، عزّوج ، ص١٩٥.

(٦) وهو الابن الثالث من بين اخوته الأربعة ، واسمه الأصلي خضر . ينظر :احمد حامد ومصطفى محسن، توركية تاريخي استانبولك فتخندة زمانمزة تادار ، (استانبول ، ١٩٢٦) ص١٠٠؛
Uzuncarsili , A . G . E . S .363.
في حين ذكر مصدر آخر أن اسمه الأصلي هو خسرف ، ثم أبدل بخير الدين الذي أطلقه عليه فضلاء الأندلسيين والمغاربة . ينظر : ابن أبي الضياف ، المصدر السابق ، ص٩ هامش (٣).

(٧) للتفاصيل أنظر: المدني ، المصدر السابق ، ص١٦٥ وما بعدها.

(٨) راجع الفصل الثاني.

(٩) سمير عبد الرسول عبد الله العبيدي ، طرابلس الغرب أثناء احتلال الأسبان وفرسان القديس يوحنا (١٥١٠-١٥٥١) ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، (جامعة بغداد ، ٢٠٠٣) ، ص ص ٧٤-٧٥.

(١٠) روسي ، المصدر السابق ، ص ص٣٥-٣٦.

(١١) المصدر نفسه ، ص٣٧.

(١٢) العبيدي ، المصدر السابق ، ص ص ٧٧-٧٨.

(١٣) روسي ، المصدر السابق ، ص٣٨.

(١٤) المصدر نفسه.

(١٥) المصدر نفسه ؛ العبيدي ، المصدر السابق ، ص٧٨.

(١٦) محمد خير فارس ، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي ،(بيروت،١٩٦٩)، ص٣٠.

(١٧) روسي ، المصدر السابق ، ص٣٨ ؛ شارل فيرو ، المصدر السابق ، ص٩٥ ؛ العبيدي ، المصدر السابق ، ص٨٠.

(١٨) فيرو ، المصدر السابق ، ص٩٥ ؛ العبيدي ، المصدر السابق ، ص ص٨١-٨٣ .

(١٩) العبيدي ، المصدر السابق ، ص٨٠.

(٢٠) المصدر نفسه.

(٢١) أبي عبد الله محمد بن غلبون، تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك وما كان بها من الأخبار، تعليق : طاهر أحمد الزاوي ، (القاهرة ، ١٣٤٩هـ) ، ص٩٣ ؛ ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢١٧.

(٢٢) للتفاصيل ينظر : العبيدي ، المصدر السابق ، ص ص٨١-٨٣.

(٢٣) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢١٨.

(٢٤) وهو من أصل إيطالي من منطقة راكوزا ، أسره القراصنة وباعوه ، إلى أن وصل أمره فيما بعد إلى قصر السلطان سليم الأول ، ثم انضم للعمل في الأسطول العثماني تحت خدمة خير الدين باشا . ينظر : الطاهر احمد الزاوي ، ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي ، (بيروت ، ١٩٧٠)، ص ص١٥٣-١٥٤.

(٢٥) محمد ناجي ، طرابلس الغرب ، ترجمة: أكمل الدين محمد إحسان ، (ليبيا ، ١٩٧٣) ، ص١٦٥ ؛ العبيدي ، المصدر السابق ، ص٣٨.

(٢٦) ناجي ، المصدر السابق ، ص١٦٥.

(٢٧) روسي ، المصدر السابق ، ص٣٨.

(٢٨) العبيدي ، المصدر السابق ، ص٩٥.

(٢٩) المصدر نفسه .

(٣٠) للتفاصيل ينظر:

Rhea Marsh Smith, Spain , A Modern History , (Michigan , 1965), pp.151-153.

(٣١) في عام ١٥٢٢م هاجم السلطان سليمان القانوني جزيرة رودس وطرد ما بها من فرسان القديس يوحنا بسبب إراقتهم دماء الكثير من المسلمين ، وتعرضهم للأسطول العثماني ، فغادروا الجزيرة بدعوة من البابا كليمنت السابع **Clement VII** (١٥٢٣-١٥٣٤م) الذي توسط لدى الإمبراطور شارل الخامس لمنحهم جزيرة مالطة وغوزو وطرابلس الغرب ، فوافق الإمبراطور على ذلك بعد مفاوضات استغرقت ستة أعوام على شرط أن يقوموا بالدفاع عن البلاد . ينظر: ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢١٩ . وللمزيد عن ذلك ينظر: العبيدي ، المصدر السابق ، ص ص٨٧-٩٩.

(٣٢) عبد اللطيف محمود البرغوثي ، تاريخ ليبيا منذ الفتح الإسلامي حتى بداية العصر العثماني ، (بيروت ، ١٣٩٣هـ) ، ص ص٤٢١-٤٢٢ ؛ ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢١٨.

(٣٣) الزاوي ، المصدر السابق ، ص٢٦٠.

(٣٤) للتفاصيل ينظر: حسن سليمان محمود ، ليبيا بين الماضي والحاضر ، (د.م ، ١٩٦٢) ، ص١٦٧ ؛ العبيدي ، المصدر السابق ، ص١٠١.

(٣٥) العبيدي ، المصدر نفسه.

(٣٦) المصدر نفسه .

(٣٧) الطاهر أحمد الزاوي ، تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، ط٢ ، (ليبيا ، ١٩٦٣) ، ص٢٦٠.

(٣٨) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢٢٠.

(٣٩) البرغوثي ، المصدر السابق ، ص ص ٢٢٨-٢٢٩ ؛ العبيدي ، المصدر السابق ، ص١٠٤.

(٤٠) الزاوي ، الفتح العربي ، ص٢٦٠ ؛ فيرو ، المصدر السابق ، ص٩٦.

(٤١) فيرو ، المصدر السابق ، ص٩٦.

(٤٢) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢١٨. بينما ذكر مصدر آخر أن أسمه خير الدين كرمان . أنظر: الزاوي، المصدر السابق ، ص٢٠٦.

(٤٣) فيرو ، المصدر السابق ، ص٩٦.

(٤٤) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢١٨.

(٤٥) فيرو ، المصدر السابق ، ص٩٦.

(٤٦) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢١٨.

(٤٧) فيرو ، المصدر السابق ، ص٩٦.

(٤٨) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢٢١ . وللمزيد من التفاصيل عن ذلك ينظر: العبيدي ، المصدر السابق، ص ص١٠٨-١٠٩.

(٤٩) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢٢١.

(٥٠) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢٢١.

(٥١) العبيدي ، المصدر السابق ، ص١١٥.

(52) Archiviodi Malta , Libri Bullarum , vol .416 , fol .190 .

نقلاً عن روسي ، المصدر السابق ، ص١٠٣.

(٥٣) العبيدي ، المصدر السابق ، ص١١٦.

(٥٤) فيرو ، المصدر السابق ، ص٩٧.

(٥٥) العبيدي ، المصدر السابق ، ص١٢١.

(٥٦) فيرو ، المصدر السابق ، ص٩٧.

(٥٧) وقد اختلفت المصادر في مصير خير الدين قرمان ، فقد ذكر مصدر أنه التجأ إلى قبيلة أبي دبوس التي تبعد عن طرابلس الغرب خمسة أميال، ثم انتقل إلى تاجوراء بعد ما هاجم فرسان القديس يوحنا تلك القبيلة. ينظر: الزاوي ، الفتح العربي ، ص٢٦٣ . بينما ذكرت بعض المصادر أنه استقر في تاجوراء ، وظل يحمي مينائها الذي استعصى على الأسبان والحفصيين مدة (٢٦) عاماً . ينظر: البرغوثي ، المصدر السابق ، ص ص ٤٣٢–٤٣٣ ؛ محمود ، ليبيا ، ص١٦٨ . بينما انفرد مصدر بذكر رواية ضعيفة عن مصير خير الدين قرمان مفادها أنه اشترك في حرب البلقان لعام ١٥٣٧م أثناء حملة السلطان سليمان القانوني على إيطاليا ومات هناك . ينظر: العبيدي ، المصدر السابق ، ص١٢٣.

(٥٨) العبيدي ، المصدر السابق ، ص١٢٢؛ البرغوثي ، المصدر السابق ، ص ص٤٣١–٤٣٢ .

(٥٩) العبيدي ، المصدر نفسه .

(٦٠) علي محمد محمد الصلابي ، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، (القاهرة ، ٢٠٠٤) ، ص٢٧٠.

(٦١) البرغوثي ، المصدر السابق ، ص٤٣٣. بينما ذكر مصدر آخر أنه في عام ١٥٣٩م تم تعيين مراد آغا حاكماً على تاجوراء. ينظر: ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢٢٢ ؛ وباعتقادنا أن الرأي الذي ذكره البرغوثي أدق من التاريخ الذي ذكره ايفانوف.

(٦٢) نقلاً عن : ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢٢٢.

(٦٣) البرغوثي ، المصدر السابق ، ص٤٣٣.

(٦٤) العبيدي ، المصدر السابق ، ص١٢٥.

(٦٥) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص١٢٦.

(٦٦) المصدر نفسه . للتفاصيل أنظر: فيرو ، المصدر السابق ، ص ص٩٨–٩٩.

(٦٧) ولد في إحدى قرى ناحية سرد الوز في موغلا Mugla وهو أبن أحد الأتراك أقنجي – أي من رماة السهام – ويدعى ترغوث أيضاً ، وقد تعلم الابن في شبابه رمي السهام وركوب الخيل ، ونظراً لوجوده في منطقة بحر ايجه ، فقد تطوع للعمل في سفينة أحد البحارة الأتراك ، واظهر مهارة وشجاعة كبيرة، وتعلم أمور السفن وشؤون البحر ، وقد اشترك في معركة بروزه عندما قاد سفن المتطوعين وسفن اللاوند، ثم تابع بعد ذلك نشاطه البحري في سواحل جنوه وأسبانيا ونابولي وصقلية . ينظر:

Doc .Dr . Atilla Cetin ,“ Trablusgarp fatih : Buyuk Turk Denizcisi Turgut Reis“ , Turk Dunyasi Tarih Dergisi , Yedinci Yil , Sayi: 77,(Mayis,1993) , pp .44-45.

(68)A. E . S .45.

(٦٩) للمزيد من التفاصيل ينظر: يحيى بو عزيز ، الموجز في تاريخ الجزائر ، (الجزائر ، ١٩٦٥) ، ص١٥٢ وما بعدها.

(٧٠) العبيدي ، المصدر السابق ، ص١٢٨.

(٧١) روسي ، المصدر السابق ، ص٦٥.

(٧٢) العبيدي ، المصدر السابق ، ص١٦٨.

(٧٣) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢٨٣.

(٧٤) البرغوثي ، المصدر السابق ، ص٤٣٤ ؛ العبيدي ، المصدر السابق ، ص١٢٨.

(٧٥) العبيدي ، المصدر السابق ، ص١٦٨.

(٧٦) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢٢٣.

(٧٥) أبيعبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني بن أبي الدينار ، المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس ، تحقيق وتعليق : محمد شمام ، (تونس ، ١٩٦٧) ، ص ص١٦٦-١٧٥.

(٧٨) العبيدي ، المصدر السابق ، ص ص١٢٩-١٣٠.

(٧٩) تم هذا الصلح في مدينة كريسبي (١٨ أيلول ١٥٤٤م) . ينظر:
Stanford Shaw, History of the ottoman Empire and modern Turkey , vol. I , (London ,1977) , p.103.

(٨٠) تمت هذه الهدنة في (١٠ تشرين الثاني ١٥٤٥م) أعترف الإمبراطور بموجبها بالفتوحات العثمانية الجديدة، كما تعهد بدفع جزية عن المناطق الواقعة في شمال وغرب المجر والخاضعة للنفوذ الأسباني ، ثم اتفق الطرفان بالتوقف عن شن الغارات ضد بعضهما الآخر . ينظر:
Shaw, op. cit , p.104

(81) Cetin , A . G . E , S.45.
وتذكر بعض المصادر أن خير الدين باشا بربروسا هدد أندريا دوريا بالهجوم على جنوه إن لم يفك أسر طرغوت ريس ، وأمام ذلك التهديد تم إطلاق سراح طرغوت . ينظر:
Yucel ve Sevim., Turkiye Tarihi,Cilt II, (Ankara , 1990) , S.290 ; Uzuncarsili, A . G . E ., S. 382.

(82) Cetin , A .G . E, S.45; Uzuncarsili, A .G . E , S . 382; Sevim , A .G. E , S. 290; ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢٠٩.

(83) Creasy, op.cit , p.180.
بينما ذكر مصدر أن خير الدين زوده ب – (٢٦) سفينة . ينظر: ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢٠٩.

(84)Uzuncarsili, A . G . E , S. 383.

(٨٥) العبيدي ، المصدر السابق ، ص١٣٢.

(٨٦) المصدر نفسه.

(٨٧) البرغوثي ، المصدر السابق ، ص٤٣٤.

(٨٨) العبيدي ، المصدر السابق ، ص١٣٤.

(٨٩) المصدر نفسه.

(٩٠) روسي ، المصدر السابق ، ص٦٥.

(٩١) المصدر نفسه .

(٩٢) العبيدي ، المصدر السابق ، ص١٣٦.

(٩٣) للتفاصيل ينظر: روسي ، المصدر السابق ، ص ص٦٦-٦٨.

(94) Shaw , op . cit , pp.104-105.

(٩٥) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢١١.

(٩٦) جلال يحيى ، المغرب الكبير ، ص٣٦٤.

(٩٧) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢١٠.

(٩٨) روسي ، المصدر السابق ، ص٦٩.

(٩٩) للتفاصيل عن ذلك ينظر نص الوثيقة بالكامل :

Archivio di Malta, Libri Bullarum , vol.419. fol.49.

نقلاً عن روسي ، المصدر السابق ، ص١٠٩. ويذكر أن هناك أسباب عدة دفعت فرسان القديس يوحنا إلى التفكير في نقل عاصمتهم إلى طرابلس الغرب كانت من أجل البقاء على وجودهم في طرابلس الغرب ، عن طريق احتكارهم النشاط الاقتصادي في المدينة ، التي تتميز بخصوبة أراضيها بعكس مالطة ، كما أن الانتقال سيحقق للمنظمة الاكتفاء الذاتي ويحررها من التبعية الاقتصادية للإمبراطور شارل الخامس . ينظر: العبيدي ، المصدر السابق ، ص١٤١.

(١٠٠) روسي ، المصدر السابق ، ص٦٩.

(١٠١) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢١١ . بينما ذكر مصدر أن السفينة التي استولى عليها طرغوت ريس في عام ١٥٤٨م بالقرب من ميناء نابولي كانت تحمل(٧٠) ألف دوكة لتحصين طرابلس الغرب. ينظر: العبيدي ، المصدر السابق ، ص١٤٠.

(١٠٢) العبيدي ، المصدر السابق ، ص ص١٤١-١٤٢.

(١٠٣) للتفاصيل عنها ينظر: الفاسي ، المصدر السابق ، ج٢، ص ص٢٣٧-٢٣٨.

(٤٢) الزاوي ، الفتح العربي، ص ٢٦٦ ؛ روسي ، المصدر السابق ، ص٧٠.

(١٠٥) العبيدي ، المصدر السابق ، ص ص١٤٢-١٤٣.

(١٠٦) كان طرغوت ريس قد سيطر عليها في عام ١٥٤٤م ، إلا أن أندريا دوريا تمكن بعد حصار طويل من احتلالها . ينظر: Cetin , A . G . E , S.45.

(١٠٧) روسي ، المصدر السابق ، ص٧٠.

(١٠٨) نقلاً عن ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢١١.

(١٠٩) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢١١؛ Creasy , op. Cit , p.180.

(١١٠) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢١١.

(١١١) فيرو ، المصدر السابق ، ص١٠٠ ؛ ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢١٢.

(١١٢) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢١٢.

(١١٣) العبيدي ، المصدر السابق ، ص١٤٢.

(١١٤) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢١٢.

(١١٥) المصدر نفسه.

(١١٦) العبيدي ، المصدر السابق ، ص١٤٤.

(١١٧) فيرو ، المصدر السابق ، ص١٠٠

(١١٨) العبيدي ، المصدر السابق ، ص١٤٤.

(١١٩) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢١٣.

(120) R.Mantran , " North Africa in the Eixteenth and Seventeenth centuries ,(In P. M.Holt,the Cambridge History of Islam , (Cambridge , 1970) ، p.254؛

فيرو ، المصدر السابق ، ص ص١٠٠-١٠١.

(١٢١) فيرو ، المصدر السابق ، ص١٠١.

(١٢٢) ورد أسم السلطان سليم الأول خطأً بدل السلطان سليمان القانوني في عدة صفحات عند فيرو ، المصدر السابق ، ص ص١٠١ ،١٠٢-١٠٣.

(١٢٣) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢١٣.

(١٢٤) فيرو ، المصدر السابق ، ص١٠١.

(١٢٥) العبيدي ، المصدر السابق ، ص ص١٤٦-١٤٧.

(١٢٦) كاتب جلبي ، المصدر السابق ، ص٢٧ ب . وقد اختلفت آراء بعض المؤرخين في عدد سفن أسطول سنان باشا ، فقد ذكر مصدر أنها كانت (٤٠) سفينة . ينظر : ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢٢٤ . بينما ذكر مصدر آخر أن السلطان سليمان القانوني أمر بإعداد (١٥٠) سفينة تحمل على متنها (١٢,٠٠٠) انكشاري و(٥,٠٠٠) جندي و(٦٠٠) فارس. ينظر:العبيدي ، المصدر السابق ، ص١٤٩.

(١٢٧) سرهنك ، حقائق الأخبار ، ص٤٤٧ ؛ ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢٢٤.

(١٢٨) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢١٣.

(129)Cetin , A .G . E, S.45.

(١٣٠) العبيدي ، المصدر السابق ، ص١٤٩.

(١٣١) روسي ، المصدر السابق ، ص٧٥ . وللتفاصيل عن ذلك ينظر: فيرو ، المصدر السابق ، ص١٠٣.

(١٣٢) فيرو ، المصدر السابق ، ص١٠٢.

(133)Archivio di Malta , Libri Bullarum, vol .422. fol . 223v.

نقلاً عن روسي ، المصدر السابق ، ص ص١١٧-١١٩.

(١٣٤) الزاوي ، الفتح العربي ، ص٢٦٧ ؛ فيرو ، المصدر السابق ، ص ١٠٣.

(١٣٥) العبيدي ، المصدر السابق ، ص ١٥٣.

(١٣٦) روسي ، المصدر السابق ، ص٧٦.

(١٣٧) المصدر نفسه ؛ فيرو ، المصدر السابق ، ص١٠٥.

(١٣٨) فيرو ، المصدر السابق ، ص١٠٥.

(١٣٩) للمزيد عن ذلك ينظر:

Cetin , A . G. E , S.45 ; Asrar , A . G . E, SS. 272-273؛

روسي ، المصدر السابق ، ص ص٧٦-٧٧؛ فيرو ، المصدر السابق ، ص ص١٠٧-١١٠ ؛ الزاوي، الفتح العربي ، ص ص٢٦٨-٢٧٠.

(١٤٠) روسي ، المصدر السابق ، ص٧٨.

(١٤١) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢٢٥.

(١٤٢) كاتب جلبي ، المصدر السابق ، ص٢٧ ب.

(١٤٣) الشناوي ، الدولة العثمانية ، ج٢ ، ص٩٢٩.

(١٤٤) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢٢٥.

(١٤٥) الزاوي ، ولاة طرابلس ، ص ص١٥٤-١٥٥ ؛ ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢٢٦.

(١٤٦) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص ص٢٢٦-٢٢٧.

(١٤٧) الشناوي ، الدولة العثمانية ، ج٢ ، ص ص٩٢٩-٩٣٠.

(١٤٨) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢٢٦. للتفاصيل أنظر :فيرو ، المصدر السابق ، ص١٢٤.

(١٤٩) للتفاصيل عنها أنظر: الفاسي ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٩٦.

(١٥٠) فيرو ، المصدر السابق ، ص١٢٥.

(١٥١) المصدر نفسه ، ص ص١٢٥-١٢٦.

(١٥٢) المصدر نفسه ، ص ص١٢٧-١٢٨.

(153) Cetin , A . G . E , S.45.

وقد اختلفت المصادر في تاريخ تعيين طرغوت ريس ، فقد ذكر مصدر أن تعيينه كان في عام ١٥٥٦م، وبقي في هذا المنصب لحين استشهاده أمام أسوار مالطة عام ١٥٦٥م . ينظر:

N.Ahmat Asrar, Kanuni sultan Suleyman peveinde Osmanli Devletinin Dini siyaseti ve Islam Alemi , (Istanbul , 1972) , SS .274

بينما ذكر آخر أن طرغوت ريس بقي في منصب والي طرابلس (١١) عاماً لحين استشهاده في مالطة . كاتب جلبي ، المصدر السابق ، ص٢٧ ب . وذكرت مصادر أخرى أن أمر تعيين طرغوت ريس تم في عام ١٥٥٣م . ينظر: فيرو ، المصدر السابق ، ص١٢٨؛ الزاوي ، الفتح العربي ، ص٢٧٣ ؛ الزاوي، ولاة طرابلس ، ص١٥٦.

(١٥٤) ابن غلبون ، المصدر السابق ، ص ص٩٦ ؛ الزاوي ، الفتح العربي ، ص٢٧٣.

(١٥٥) فيرو ، المصدر السابق ، ص١٢٨.

(١٥٦) المصدر نفسه ، ص١٢٩.

(١٥٧) فيرو ، المصدر السابق ، ص١٣٣.

(١٥٨) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص٢٢٦. وللتفاصيل ينظر: فيرو ، المصدر السابق ، ص١٣٣.

(١٥٩) للتفاصيل ينظر: فيرو ، المصدر السابق ، ص ص١٣٨-١٤٣.

(١٦٠) للتفاصيل ينظر: فيرو ، المصدر السابق ، ص ص١٤٤-١٤٨ ؛

Uzuncarsili , A . G . E , S. 387; Sevim , A . G . E , SS . 219-292.

(١٦١) فيرو ، المصدر السابق ، ص ص١٥١-١٥٢.

(١٦٢) المصدر نفسه ، ص١٥٢.

(١٦٣) المصدر نفسه . وقد اختلفت المصادر في عدد سفن الأسطول ، فقد ذكر مصدر أنها كانت (١٨٠) سفينة. ينظر: Uzuncarsili, A.G.E , S .390. بينما ذكر آخر أنها كانت (١٨١) سفينة . ينظر:

Sevim, A.G.E , S . 292.

(164) Uzuncarsili , A.G.E , S .390 ; Sevim , A.G.E , S. 292.

(١٦٥) فيرو ، المصدر السابق ، ص ص١٥٢–١٥٣ ؛
Cetin , A .G .E , S.46 ; Uzuncarsili , A .G.E , S .390.

(١٦٦) فيرو ، المصدر السابق ، ص١٥٤.

(١٦٧) ابن غلبون ، المصدر السابق ، ص٩٩ ؛ فيرو ، المصدر السابق ، ص١٥٥.

(١٦٨) فيرو ، المصدر السابق ، ص١٥٥.

(١٦٩) ابن غلبون ، المصدر السابق ، ص٩٩.

(١٧٠) المصدر نفسه ؛ فيرو ، المصدر السابق ، ص١٥٥.

(١٧١) فيرو ، المصدر السابق ، ص١٥٥.

(١٧٢) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص ١٢٧–١٢٨.